الفصل الحادي عشر

التمهيد للفتح وللامبراطورية

الحد الشمالي لبلاد العرب

ألف الناس من أقدم الحِقَب فى التاريخ أن يروا الحد الشمالى لبلاد العرب ممتدًّا من أعلى خليج العقبة إلى أعلى الخليج الفارسي فى شماليهما . وليس هذا الحد ممتدًّا فى خط مستقيم ، بل هو يتبع سلسلة الجبال التى تفصل بين صحراء النفود [1] وبادية الشام . وقد كانت دُومة الجندل بالجوف أعلى المدائن التى تتاخم هذا الخط ، وذلك فيما خلا العصور التى كانت الشام والعراق منضمتين فيها إلى الدولة العربية .

وأهل الشام الأصيلون من الفينيقيين . وأهل العراق الأولون من الأشوريين . ولقد كانت الصحراء التى تترامى بينهما ، وهى بادية الشام ، تحول فى العُصُر الأولى دون التقائهما وامتزاجهما . فاجتياز الصحارى ليس أمراً محبباً إلى أهل الحضر . وفيم يجتازونها ويتعرّضون لأخطارها وليس فيها من أسباب الحياة ما يجذب النفس إليها ! وإن كثيرين ليفرون حتى اليوم من اجتياز هذه البادية بالسيّارة ، ويُؤْثرون النقلة بين الشام والعراق على متن الهواء .

على أن هذه الصحراء التى لم يَهْوِ إليها الفينيقيون من أهل الشام ولا الأشوريون من أهل العراق فى العصور القديمة ، قد استهوت العرب أهل البادية ممن يرون الصحراء الطليقة سحراً ووحياً وحرية وجمالا ، ويرون الحضر قيداً بل سجناً وإن لُبِستْ فيه الشفوف . والمؤرخون يذكرون هجرة العرب إلى الشمال

---

(١) صحراء النفود ، كما نعرفها اليوم ، هى بادية السماوة المعروفة فى كتب العرب أو تقرب منها .

هجرة العرب إلى بادية الشام

لانهيار سد مأرِب ، ونزوح قبائل الأزد التى جرفها السيل إلى الحجاز و إلى الشام ؛ أو لاتخاذ الروم البحر طريقاً للتجارة بدلا من البادية . وهم يذكرون أن هذه الهجرة حدثت فى القرن الثانى المسيحيّ . ومع التسليم بهذه الرواية ، فلا ريب فى أن قبائل من العرب استقرّت ببادية الشام قروناً طويلة من قبل ، متخلفة عن القوافل التى كانت تنزل العراق أو الشام للغزو أو للتجارة .

وقد أقام العرب الذين نزحوا إلى الشام و إلى العراق على حدود الحضر فى كل من الدولتين . ولم يكن مُقامهم على هذه الحدود مما اضطرتهم إليه سياسة الدولة التى نزلوا بها ، و إنما جذبتهم البادية إليها فلم يستطيعوا مقاومة سحرها ، واستهواهم الحضر ليكونوا على مقربة منه كى ينالوا رزقهم دون مشقة أو عناء . وذلك شأن أهل البادية فى كل عصر . وأنت إذا التمست منازلهم اليوم بمصر أو بالشام أو بالعراق أو بأى بلد يتصل فيه الزرع برمال الصحراء ، رأيتها على شفا الصحراء بين الحضر والبادية ، ورأيت أهلها يولّون شطر البادية وجوههم و يمعنون فيها بقوافلهم حيناً بعد حين . وكأن الوراثة البدوية المتغلغلة فى نفوسهم و الجارية مع الدماء فى عروقهم ، تأبى عليهم أن يستقروا وأن يسكنوا إلى ما يسكن أهل الحضر إليه من نظم الجماعة . وطبيعتهم هذه تفرض عليهم ألواناً من الشظف ما كان أغناهم عنها لولا ما يجدونه فى فسحة البادية من حرية مطلقة ، ومن اتصال بالوجود غير المحدود ، ينهض عندهم عوضاً عن كل شظف ، ويهوّن عليهم كل مشقة .

مملكة بنى غسان ومملكة الحيرة

ولم تلبث بادية الشام حين انتشرت فيها قبائل العرب الذين هاجروا إليها أن صارت كأنها قطعة من شبه الجزيرة . وكان الغسّانيون أقوى هذه القبائل عنصراً ، وأكثرهم على الحياة صبراً وجلداً . لذلك أقاموا مملكة بنى غسان على حدود الشام ، كما أقام اللّخميون ملك الحِيرة على شواطئ الفرات . ولقد كان

دأب هؤلاء العرب يومئذ كدأب بنى وطنهم دائماً ، يشاركون الأمة التى يقيمون على حدودها فى مصيرها و يشاطرونها آمالها . من ثم سلّموا فى الشام بحكم الروم ، وفى العراق بحكم الفرس . و إنما كان ذلك منهم تسليما بالأمر الواقع أكثر مما كان إذعاناً لغلب المنتصر ؛ لذلك كانت الأوضاع السياسية تتغير فى أمرهم تبعاً لقوتهم وضعفهم ، وكان لهم أكثر الأمر استقلال ذاتى حرصوا عليه ودافعوا عنه .

ومن العجب فى أمر البدوى أنه ، على تعلقه بالبادية وحبه إياها وانجذابه إليها كلما بعد عنها ، شديد الإعجاب بالحضر وما يحيط به من زروع نضرة ، وما يبدو على أهله من نعْمة ورَفاه عيش . ولقد كان حديث الشام وجنّاتها وأعنابها وحورها العين مما لا يفتأ أهل مكة والمدينة وسائر بلاد الحجاز يتذاكرونه بعد رحلة الصيف ، يقصّ نبأه من اشترك فى الرحلة ، و يرويه الرواة عنهم بعد ذلك ، فإذا شِفاه السامعين تنفرج ، وحدق عيونهم يتّسع ، وريقهم يتحلّب ، شوقاً لهذه الخضرة النضرة ، والمياه الجارية ، والأيدى الناعمة ، والخدود الملساء ، أن يكون لهم مثلها فى بلادهم . وكأنما غاب عنهم أن بارئ النَّسَم قسم الرزق بين الناس بالعدل ، فجعل لأهل البادية الحرية الشاملة و إباء الضيم ، يقابلهما شظف لا يصدّ عنهما ولا يقلل من الرغبة فيهما والحرص عليهما ؛ وجعل لأهل الحضر الرفاهية والنَّعْمة والنظام والأمن ، يقابل ذلك قيود للحرية فى كل مظاهرها ، ثم لا ينزع الناس إلى تحطيم هذه القيود حرصاً على النَّعمة وعلى الأمن .

حرص القبائل التي هاجرت إلى بادية الشام على حياتها العربية

كان ذلك شأن القبائل التي هاجرت إلى العراق و إلى الشام على تفاوت بينها فى التعلق بالبادية . ومع أن أكثرها نعم بالحضر وترفّه ، لقد ظل حرصها جميعاً على حياتها العربية شديداً ، كما ظلت العلاقات بينها و بين شبه الجزيرة متصلة على القرون . وليس من غرضى أن أفصّل ذلك فى هذا الكتاب ، فنطاق البحث لا يتسع له ولا يقتضيه . و إنما أُثبت منه هنا ما يجلو لنا بعض السر فى تمهيد هاتين الإمارتين

العربيتين ، إمارة اللخميين وإمارة الغسانيين ، للفتح العربى وللإمبراطورية الإسلامية فى عهد أبى بكر .

أشرنا إلى أن هجرة العرب من الجنوب إلى الشمال ترجع إلى ما قبل انهيار سدّ مأرِب ، وقبل تحويل الروم طريق التجارة من البر إلى البحر . والواقع أن هذه الهجرة أقدم بكثير من هذين الحادثين ، على ما كان لهما من جليل الخطر فى حياة بلاد العرب . فالنسّابون يذكرون أن التنقل بين القبائل كان كثير الوقوع من قبل الإسلام ، وهو لا شك كان كثير الوقوع منذ أقدم العصور . فقد كان العرب يتعاملون مع البلاد التى تجاورهم ؛ إذ كانوا ينقلون تجارة الشرق الأقصى إلى بلاد الشام ومصر والروم ، وكانوا ينقلون تجارة الشام ومصر والروم إلى الشرق الأقصى . وكانت هذه التجارة تسير مخترقة شبه جزيرة العرب فى أحد طريقين : طريق حضرموت إلى البحرين على الخليج الفارسى ثم إلى الشام ، وطريق حضرموت إلى اليمن فالحجاز إلى الشام . وكانت مكة تتوسط هذا الطريق الثانى . وكان أهل الجنوب من الحضارمة واليمنيين وأهل عُمان والبحرين هم السابقين الأولين للقيام بهذه التجارة . ذلك بأنهم كانوا أكثر من أهل الشمال حضارة ؛ لخصب أرضهم ، ولاتصالهم بالفرس اتصال جوار مباشر . لذلك كانت أكثر القبائل التى هاجرت إلى العراق وإلى الشام واستقرت بهما من قبائل الجنوب . فالغساسنة الذين أسّسوا مملكتهم شرقى الشام كانوا من الأزد إحدى قبائل عُمان التى تنسب إلى شعب كهلان اليمنىّ . كذلك تُنسب قبائل قُضاعة وتنوخ وكلب التى استقرت على حدود الشام إلى شعب حمير اليمني . وطبيعىٌّ أن تستقر قبائل الجنوب بالعراق ؛ فإن العراق يجاور حضرموت وما اتصل بها من قبائل بنى حنيفة وتغلب ومن إليهم .

قبائل الجنوب من شبه جزيرة العرب هي التى هاجرت إلى بادية الشام

هاجرت بطون من هذه القبائل منذ العصور الأولى إلى بادية الشام ،

واستقرّت بها مستقلة عن سلطان أولى السلطان فى حضر العراق وفى حضر الشام . فلما انهار سدّ مأرب ثم انقسمت التجارة بين طريق البادية وطريق البحر ، هاجرت بطون أخرى وقبائل أخرى إلى الحجاز ، ثم هاجرت بعض هذه البطون منه إلى الشام ، التماساً لرزق أوفر وحضارة أكثر وأرفه من حضارة البادية .

اتصال العرب الذين نزحوا إلى بادية الشام بفارس والروم

وكان السلطان فى العراق وفى الشام متداولاً بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومية . فكانت فارس تنتزع الشام من الروم أحياناً وتضمه إلى العراق التابع لها . وكان الروم ينتزعون العراق من فارس أحياناً ويضمونه إلى الشام التابع لهم . وكان العرب الذين نزحوا إلى بادية الشام ينضمون فى كثير من الأحيان إلى جيش الفرس أو جيش الروم ، متأثرين بما فى طبيعتهم من ميل إلى الغزو والسلب . وأدّى ذلك إلى أن فكرت الدولتان فى اتخاذ هؤلاء الذين نزلوا البادية الممتدة بينهما سدًّا يحول دون اعتداء إحداهما على الأخرى ، لتبقى الشام خالصة للروم ، والعراق خالصة لفارس .

على أن هذه القبائل العربية انحازت بحكم منازلها فى البادية إلى أقرب حضر لها ؛ فانحاز المقيمون على حدود الشام إلى الروم ، وانحاز المقيمون على حدود العراق إلى فارس ، مع احتفاظهم باستقلالهم الذاتى ، ومعيشتهم البدوية ، وحياتهم العربية الخالصة .

لم يحُلْ احتفاظهم بهذه الخصائص دون تأثرهم بحياة الحضر القريب منهم ، وسياسة الدولة التى يخضع هذا الحضر لها . بل لقد تغلغل فى هذا الحضر من أنِس منهم فى نفسه الكفاية لامتثال حياة الحضر والاضطلاع بأعبائها ، وبلغ من ذلك أن امتد سلطانه وعظم فى المملكة نفوذه . وإن المؤرخين ليذكرون أن الإمبراطور الرومانى فيليب كان عربيًّا من بنى السيمذع أوّل من عرف التاريخ من العرب الذين هاجروا إلى الشام ، وأنه كان قبل ارتقائه عرش الإمبراطورية رئيس عصابة

فى تعبير الغربيين ، ورئيس قبائل تغير وتغزو فى تعبير العرب . وأعلى ذلك من مكانة العرب المقيمين بالشام ، وإن لم يصرفهم عن البادية ولم يُدمجهم فى حضارة الروم .

أمّا العرب الذين أقاموا على حدود العراق ، فلزموا البادية ولم يجازفوا بالدخول إلى حوض الفُرات كى لا يخضعوا لسلطان الفرس فيه . وظل ذلك دأبهم حتى كانت الفرس مسرحاً لثورات وحروب داخلية اتصلت بين ملوكها وزعماء الطوائف فيها . وقد تغلّب زعماء الطوائف واستقلوا بأمر الفرس ، كل منهم فى ناحيته . وأتاح ذلك للعرب أن دخلوا حوض الفرات وأنشئوا على شاطئه مدينة الأنبار ، ثم أنشئوا الحيرة .

ولعل قبائل من هؤلاء العرب كانوا من الأسرى الذين جاء بهم الفرس حين غزواتهم الأولى لجنوب شبه الجزيرة . فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن الملك بُخْتَنَصَّرَ الثانى غزا شبه الجزيرة وعاد منها بالأسرى ، وأنزلهم على شاطئ الفرات ، فأقاموا الأنبار ؛ ثم إنه نقلهم من الأنبار جنوباً فأنشئوا مدينة الحيرة[1] .

جذيمة الأبرش يضم غرب الفرات تحت سلطانه

وأيًّا كانت الرواية الصحيحة فالثابت أن العرب بدأ سلطانهم يستقر فى العراق من ذلك الحين ، وأنهم استقلوا بالأمر غرب الفرات بين الأنبار والحيرة حين تولّى أمرهم جَذِيمةُ الأبرش أو الوضّاح بين سنة ٢١٥ وسنة ٢٦٨ ميلادية . وقد جمع جذيمة كلمتهم وامتدّ سلطانه فيهم من الحيرة إلى الأنبار إلى عين التَّمْر ؛ وبذلك

(١) يذكر المسعودى أن بختنصر لم يكن ملكا بل كان مرزباناً على العراق للملك كيخسرو ، وأنه حارب العرب باسم كيخسرو وأسر منهم . ويخالف الطبرى وبعض مؤرخى العرب هذه الرواية ويذهبون إلى أن تبعا الأول سار من اليمن على رأس بطون من لخم وجذام وعاملة وقضاعة والأزد وغيرهم فغزا جانب العراق المجاور للبحرين ، ثم إن جنده تحيروا ، أى أقاموا ، على شاطئ الفرات . ولما عاد تبع إلى اليمن تخلفت بطون من هذه القبائل فأقاموا بالحيرة حيث تحيروا . وفى رواية عن ملوك الطوائف أن الاسكندر الأكبر هو الذى أقامهم حين غزا فارس إذ أقر كل مرزبان على ناحية وجعله ملكا على أهلها ليفرق كلمة الفرس ويجعل بعضهم لبعض عدوا فلا يثورون به ولا ينتقضون على سلطانه .

اشتمل غربَ الفرات كله إلى بادية الشام . بل لقد امتد سلطانه على العرب المقيمين بهذه البادية حين غزا مُضَر المقيمين بها ، وضم إليه منهم عدىّ بن ربيعة وشرّفه وأكرمه .

وعدىٌّ هذا هو الذى تزوّج الرّقَاش أخت جذيمة ، فتناولت كتب الأدب نبأها بآثار روائية شائقة ، وهو الذى أولدها عمرو بن عدىّ صاحب قصة الزبّاء التى انتحرت قائلة : « بيدى لا بيد عمرو » .

أذينة بن السميذع على رأس العرب بالشام

بينما كان جَذِيمة الوضّاح على ملك العرب بالعراق ، كان أُذينة بن السَّمَيْدَع على رأس العرب بالشام ، وكان سابور عاهل فارس ، وفيليب إمبراطور الروم . وقد ثار أهل الشام بسلطان فيليب لقسوة حكمه . وانتهز سابور الفرصة فسار إلى الشام وهزم جند الروم . عند ذلك نقض أُذينة عهد ولائه للروم وانضم للفرس ، وطمع فى أن يكون له فى ظل سابور من المكانة بالشام ما لجذيمة بالعراق . على أن ڤالريان تولّى إمبراطورية الروم مكان فيليب ، وسار بنفسه إلى الشام وهزم سابور وردّه إلى فارس . عند ذلك عاد أُذينة موالياً للروم . غير أن الدوائر ما لبثت أن دارت على ڤالريان . وأراد أذينة أن ينضم إلى سابور كرّةً أخرى ، فرفض سابور ولاءه بعد الذى رآه منه . ولم يجد أذينة بدًّا فى محافظته على سلطانه وعلى حياته من أن ينهض بنفسه على رأس عرب الشام لمحاربة فارس . وبسَم له الحظ فغلبها وطارد جيوشها إلى المدائن . بذلك سمتْ مكانته عند الروم ، وصار صاحب القدْح المعلَّى فى محاربة الفرس ، حتى لقد تغلّب عليهم من بعد ذلك كرةً أخرى .

وحكم بعد أُذينة أبناؤه ، ومنهم الزبّاء . وقد استهوت إليها جذيمة ودعته ليتزوجها ثم قتلته ، فكان جزاؤها أن ذهب إليها عمرو بن عدىّ ومعه قَصِير ابن عمرو فانتحرت حتى لا يقتلها . وبوفاتها انقضى عهد بنى السميذَع بالشام .

وخلَف الغسّانيون من أبناء جَفْنةَ بنى السميذَع على ملك الشام ، بعد فترة قصيرة حاول جماعة من بنى نصر القائمين بأمر العراق أن يتولوا أثناءها أمر الشام ، فلم يستقر لهم فيه أمر .

تمهيد هؤلاء العرب بالعراق والشام للفتح العربى والامبراطورية الاسلامية

نقف هنيهة ها هنا ، فى منتصف القرن الثالث الميلادى ، لنرى كيف صار الأمر فى شرق الشام وغرب العراق إلى العرب . فهؤلاء الذين نزلوا البادية أوّل ما نزلوها قبائلَ مهاجرة أو أسرى جاء بهم ملوك فارس من شبه الجزيرة ، قد صاروا إلى حيث يعتدّ بهم الروم وتعتدّ بهم فارس ، وتحرص كلتا الدولتين على ولائهم لها ومناصرتهم إياها ، وتعترف كلتاهما لهم بالاستقلال الذاتى ، تقديراً لشجاعتهم وإقدامهم فى الحروب . والحق أنهم لم يكونوا فى صلتهم بهاتين الإمبراطوريتين العظيمتين دون اليمن أو حضرموت أو غيرها من بلاد شبه الجزيرة التابعة لنفوذ فارس ، بل لعلهم كانوا أكثر منها استقلالا . وأنت لذلك تستطيع أن تقول إن بلاد العرب امتدت من خليج فارس وخليج عَدَن جنوباً إلى الموصل وإرمينية شمالا ، وإنْ تأثّر عرب العراق وعرب الشام بحضارة الفرس وحضارة الروم أكثر مما تأثر بهما سائر بقاع شبه الجزيرة .

ألسنا فى حلٍّ ، وذلك هو الشأن ، من أن نقول إن هؤلاء العرب فى العراق والشام كانوا الطلائع الأولى فى التمهيد للفتح العربى وللإمبراطورية الإسلامية ؟ لم يدُرْ ذلك بخلد أحد منهم بطبيعة الحال . فلم يكن أحد منهم يتصور بعث محمد ورسالته ، وما أدى إليه البعث وأدت إليه الرسالة من وحدة بلاد العرب ومن سمو النفس العربية إلى حيث سمتْ . لكن مُقامهم بين الفرات وأودية الشام ، واحتفاظهم بخصائص حياتهم العربية ، واتصالهم بأهليهم وبمن يحيطون بهم فى شبه الجزيرة ، كل ذلك كان مقدّمة لما تلاه بعد أربعة قرون من زحف عرب الجزيرة إليهم محاربين لتحلّ الإمبراطورية الإسلامية محل الإمبراطوريتين الفارسية والرومية .

تولى عمرو بن عدىّ ملك العراق بعد جَذيمة الأبرش من قِبَل سابور ، فانتقم لجذيمة من الزبّاء ، كما قدمنا . وقد جعل عمرو الحِيرة عاصمته ؛ ومن يومئذ صارت عاصمة اللخميين إلى أن انحل الملك عنهم .

ملوك الحيرة لهم استقلال ذاتى مع تبعيتهم لفارس

وكانت تبعيّة عمرو بن عدىّ ومن جاء بعده من ملوك الحيرة لبلاط فارس محدودة ، فكان صاحب الحيرة مطلق السلطان على غرب الفرات إلى بادية الشام . وكان ولاؤه لعاهل الفرس مقيداً بدفع العرب من شبه الجزيرة أو عرب الشام التابعين لإمبراطور الروم عن أرض فارس ، وبحماية التجارة التى تسير من فارس إلى الشام أو إلى بلاد العرب .

على أن هذا الولاء لم يحل دون اقتحام العرب أرض فارس ، وبخاصة ما جاور منها الخليج الفارسى . وقد صدهم الفرس غير مرة ، ثم اضطُرّ سابور ذو الأكتاف إلى حفر خندق سابور على حدود بلاده ليصدّ عنها العدوان .

النعمان الأكبر صاحب الخورنق والسدير

وتوالى الملوك من بنى نصر على عرش الحِيرة ، حتى تولاه النُّعمان الأكبر فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس المسيحى . وقد تولاّه من قِبَل يَزْدَجِرْد . والنعمان الأكبر هو الذى بنى قصري الخَوَرْنَق والسّدِير ، وهو صاحب قصة سِنِمَّار .

ويروى أن النصرانية بدأت تنتشر بالعراق فى عهده ، وأنه لان لها وعطف عليها ، فأنشئت فيها برضاه أديار وبِيَعُ . بل إن بعضهم ليذهب إلى أنه تديّن بالنصرانية ثم تقشّف ونزل عن ملكه لابنه المنذر الأكبر[1] ، وذلك حين رأى يزدجرد يضطهد النصرانية ويحارب الذين يدينون بها .

---

(١) أشار عدى بن زيد الشاعر إلى نزول النعمان الأكبر عن ملكه فى قصيدة جاء فيها :

تدبر رب الخورنق إذ أشـــرف يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة مايمـــلك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبـــه فقال وماغبـــطة حى إلى الممات يصـــير

وكان يَزْدَجِرْد قد بعث بابنه بَهْرام جور إلى الحيرة لينشَّأ فيها . وحذق بهرام العربية واليونانية وأحاط بشؤون العرب والروم خُبْراً . فلما مات يزدجرد آثر الفرس أن يولّوا عليهم كسرى بن أرْدَشِير بن سابور ذى الأكتاف ، لأنه نشأ بينهم حين كان بهرام غريباً عنهم . وسار بهرام يستردّ عرشه وأعانه المنذر . فلما اعتلى العرش نصح له المنذر أن يعفو عن خصومه ؛ بذلك كسب بهرام قلب الخاصة ، ثم كسب قلب الشعب بأعطياته و بتخفيفه من أعباء الضرائب .

بهرام جور يضطهد النصرانية

وبالغ بهرام جور فيما بدأه أبوه من محاربة النصرانية ؛ فكان ذلك سبباً فى نشوب الحرب بين فارس والروم . وأعان المنذر بهرام فى هذه الحرب التى انتهت إلى صلح بين الفريقين طال أمده .

كان ملوك العرب من بنى غسان بالشام يناصرون الروم فى محاربتهم الفرس ، كما كان اللخميون يقاتلون الروم حلفاء لجيش فارس . ولعل الحروب اشتدت فى هذه الفترة الأخيرة بين الإمبراطوريتين أن زاد العامل الدينى أوارها . فمنذ تولّى قُسْطَنْطين إمبراطورية الروم فى أوائل القرن الرابع الميلادى بدأت المسيحية تزدهر ، و بدأ أباطرة الروم يُعلون من شأنها فى كل مكان ، و بدأ المبشرون بها ينتشرون فى مختلف البلاد . وانتقالهم من الشام إلى العراق و إلى بلاد فارس هو الذى هاج يزدجرد لمناهضة هذا الدين الجديد ، وهو الذى جعل بهرام جور يغلو فى محاربته ، حتى ينتهى الأمر إلى ذلك الصلح الذى أشرنا إليه .

موقف العرب بالشام والعراق من دين الفرس ودين الروم

ماذا كان موقف العرب فى العراق وفى الشام من دين الفرس ، ومن دين الروم ؟ أتأثّرت قبائل العراق بالمجوسية فأقبلت عليها ، وتأثرت قبائل الشام بالمسيحية فأقبلت عليها ؟ أم أعرض هؤلاء وأولئك عن المجوسية والمسيحية جميعاً ، واحتفظوا بوثنيتهم العربية ، و بأصنامهم يعبدونها لتقرّبهم إلى الله زلفى ؟

للجواب على هذا السؤال قيمة كبرى فى البحث الذى نتناوله الآن . فهو

يكشف عن اتجاه العقلية العربيـة وعن ميول العرب الروحية ، ويجلو لنـا كيف مهّدت هذه العقلية وهذه الميول للفتح العربى فى ظل الإسلام .

ذكرنا أن العرب تأثروا فى العراق وفى الشام بحضارة الفرس وحضارة الروم . فمن عرب العراق من أجادوا الفارسـية ، وفقهوا تيارات التفكير الفارسى فى الفن والأدب والدين ، وتبينوا مَثْنَوِيّة مانى وتعاليم زَرْدُشْت وزندقة مَزْدَك . ولم يكن ذلك عجيباً وقد أتاح لهم رغد العيش وترفه أن يتثقفوا ، وأن تبلغ بهم ثقافتهم علم هذا كله وعلم ما اتصل بهم من تفـكير اليونان وفلسفتهم . ولذلك عـلّم أهل الحيرة قريشاً الزندقة فى الجاهلية والـكتابة فى صدر الإسلام[1] .

وكان ذلك شأن عرب الشام فى اتصالهم بثقافة الروم وأدبهم ودينهم . بل لعلهم كانوا أرقى عقليـةً من عرب الحيرة ؛ لأنهم كانوا أقرب اتصالا بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانية .

لمـاذا هـوت النفس العربيـة إلى النصرانيـة

لم يأخذ عرب العراق بمجوسية الفرس مع اتصالهم بهم وإعجابهم بحضارتهم . ولم يأخذ عرب الشام بوثنية الروم أو اليونان ولم يعبدوا آلهتهم . فلما اسـتقرت المسيحية فى الإمبراطورية الروميـة هوت إليها النفس العربيـة فى الشام والعراق جميعاً . فلماذا ؟

يذكر بعض المؤرخين أن أوّل ملك تنصّر من بنى غسان إنما تنصر لأن إمبراطور الروم لم يكن يرضى عن ولاية غير نصرانىّ فى أنحاء الإمبراطورية . وإذا فسّر هذا تنصُّر أمراء العرب فإنه لا يفسر تنصر القبائل . فإن قيل إن قبائل الشام تنصّرت مجاراة لملوكها ، فالنـاس على دين ملوكهم ، فقد تنصّر من قبائل العراق كثيرون يدينون بالولاء لملك الحيرة ، وكان يحارب النصرانيـة حليفاً لفارس .

(١) فجر الاسلام لأحمد أمين ص ٢٣ ، نقلا عن الأعلاق النفيسة لابن رسته .

لا بد إذن من دافع آخر أدّى بهذه القبائل العربية فى العراق لتدين بالنصرانيـة ، وأن يكون هذا الدافع متصلا بالعقلية العربية وميولها الروحية .

والعقلية العربية بفطرتها بدوية مستقيمة ، تريد الحقيقة فى بساطة ، وتقصد إليها فى غـير التواء ولا تعقيـد . فزندقة مزدك ومثنوية مانى قد تستهوى من يعجبهم الحوار ويغريهم الجدل ، وكذلك الأمر فى فلسفة اليونان . ولا تميـل العقلية العربية إلى هذا التعقيد الجدلىّ . لهذا هوت إلى النصرانية وأخذت بها واطمأنت إليها ، ولم يَدِنْ بالمجوسية من العرب إلا قليل .

والنصرانية دين سماوى أصحابه أهل كتاب أقرّ الإسلام صفاءه الأول ؛ فلا عجب أن يكون أخذ العرب بها فى العراق وفى الشام من طلائع التمهيد للفتح العربى وللإمبراطورية الإسلامية .

تعلق العـرب باسـتقلالهم وبحياتهم العربية

على أن سبق العرب للنصرانية فى العراق والشام لم يغير من خصائصهم ، ولم يصرفهم عن استقلالهم وعن تعلقهم بحياتهم العربية . تولّت الأميرة العربية ماوية بنت الأرقم بن الحارث الثانى أمر العرب بالشام فى أواخر القرن الرابع المسيحىّ ، فطمع الروم فى ملكها ، فحاربتهم حتى اضطرتهم لمصالحتها ، ثم أمدتهم بفوارس لمحاربة القوط الطامعين فيهم . وقد دافع هؤلاء الفرسان العرب عن القسطنطينية دفاعاً مجيداً .

ولم يكن حرص الغساسنة على استقلالهم الذاتى إزاء الروم ، وحرص اللخميين على اسـتقلالهم الذاتى إزاء فارس ، ليجمع بين هؤلاء العرب وأولئك ؛ ولم يجمع بينهم اشـتراكهم فى الميل للمسيحية ؛ بل كانت الحروب تتصل بين اللخميين والغسّانيين اتصالها بين فارس والروم . أليست القبيلة أساس العمران العربى ! فكما كان عرب شبه الجزيرة قبائل يقاتل بعضهم بعضاً ، كان عرب بادية الشام قبائل يقاتل بعضهم بعضاً .

اللخميون والغسانيون في ذروة المجد

في الثلث الأول من القرن السادس المسيحيّ بلغ اللخميون ذروة المجد في العراق ، و بلغ الغساسنة ذروته في الشام ، وكان ذلك في عهد المنذر الثالث اللخمي والحارث بن جبلة الغساني . تولّى المنذر الثالث ابن ماء السماء ملك الحيرة بين سنة ٥١٣ وسنة ٥٦٢ ميلادية في عهد قُبَاذ ثم كسرى أنُو شِرْوان . وتولّى الحارث ابن جبلة زوج مارية ذات القُرطين ملك الغساسنة بين سنة ٥٢٩ وسنة ٥٧٢ ميلادية ، في عهد جُسْتنيان ثم في عهد جُسْتين الثاني . وكان هذا الحارث يدعى الحارث الأعرج ، كما كان يدعى الحارث الوهّاب .

في هذا العهد ظلّت الحروب متصلة بين الفرس يحالفهم المنذر ، والروم يحالفهم الحارث . وكان المنذر في هذه الحروب شديد البأس قوى الشكيمة ، بلغ من ذلك أن فرض الصلحُ الذي تم بين الفرس والروم جُعْلاً سنويًّا يدفعه الروم للمنذر .

استمر هذا الصلح زمناً قوى فيه الروم واستند ساعدهم وخشيهم كسرى ، فدفع حليفه المنذر فحارب الحارثَ وتغلّب عليه . ثم عادت الحرب فشبّت بين الروم والفرس كرة أخرى إلى سنة ٥٦٢ م . وكان المنذر في هذه الأثناء لا يهدأ عن الحرب ، يحارب خصومه ، ويحارب خصوم فارس ، ويوغل في ممتلكات الروم حتى يبلغ حدود مصر .

لم تخفِض قوة المنذر من قدر الحارث عند الروم ؛ فقد ظل في نظرهم القوة التي يواجهون بها عرب العراق . ولذلك ولّاه الأمبراطور جُسْتنيان منذ سنة ٥٢٩ م ملكا على جميع قبائل العرب في سوريا ، وجعل له لقب فيلارك و بطريق (Phylarque et Patrice) وهو اللقب الذي يلي لقب الحاكم الروماني في الشام .

فكّر الحارث في التخلّص من المنذر . أمّا وهو لا يستطيع ذلك في ميادين القتال ، فليجعل الغدر سلاحه . فبينما كانت الحرب ناشبة بينهما يوماً أوفد مائة من رجاله عطّرتهم ابنته حليمة ليلقوا ملك الحيرة ويبلّغوه أن ملك الغسانيين يُذعن له .

وانتهز أحدهم فرصة غال فيها المنذر وقتله . عند ذلك اضطرب جند العراق ، فهاجمهم الحارث وشتت شملهم ؛ وذلك يوم حليمة[1] .

بلغ مجد العرب المقيمين ببادية الشام وما جاورها من أرض العراق وأرض الشام غاية ذروته فى هذا العهد . وقد أبرز الأدب الجاهلى هذا المجد فى كل جلاله .

فالمنذر هو صاحب يوم النعيم و يوم البؤس ، وهو الذى قتل عبيداً الأبرص فى يوم بؤسه ، وهو صاحب قصة شريك بن عمرو ؛ وكان كثيرون من شعراء شبه الجزيرة يؤمونه . وقد عاصر الحارث الوهّاب النابغة الذبيانى وعلقمة الفحل .

آخر ملوك الحيرة

تولّى عمرو بن هند ملك العراق بعد أبيه المنذر الثالث ؛ وفى السنة التاسعة من حكمه ولد رسول الله . ومن بعد عمرو توالى بنو المنذر على ملك الحيرة حتى تولاه أبو قابوس النعمان بن المنذر الرابع صاحب الشاعر الأعشى ميمون بن قيس بين سنة ٥٨٣ وسنة ٦٠٥ م . وقد امتد ملك النعمان فى بلاد فارس حتى بلغ دجلة حيث بنى مدينة النُّعمانية على مقربة من المدائن عاصمة كسرى . وكان النعمان على قبح صورته مترفا ولوعاً بمتع الحياة ولينها . تزوج امرأة أبيه المتجرّدة ذات الجمال البارع ، فأحبت المُنَخَّل اليشكرىّ فقتله النعمان . وأنشأ النعمان الحدائق الغنّاء وجلب إليها أبهج الزهر ، فشقائق النعمان تنسب إليه .

لم يرضَ كسرى أبْرَوِيز عما بلغ النعمانُ من سلطان وما يرفل فيه من نَعْمة ، فحبسه وقتله ، ثم قضى على سلطان اللخميين جميعا . ولقد أقام مقامه على ملك الحيرة إياس بن قَبيصة ، وأقام معه مرزبانا فارسيًّا يدعى بهرجان . وفى عهد إياس بُعث النبى ، وفى عهده كان يوم ذى قار ، ثم كان إياس آخر ملوك الحيرة من العرب . فقد قام داذويه الفارسى من بعده مرزبانا على العراق من قِبَل كسرى .

---

(١) راجع كوسان دپرسفال فى تاريخ العرب ج ٢ ، ص ١١٣ — ١١٤ . وتاريخ الحيرة وتاريخ غسان بعض ما استوفاه دپرسفال مستنداً إلى المصادر العربية واليونانية والأورية .

ويوم ذى قار من أيام العرب المأثورة . ذكروا أن النعمان بن المنذر أودع أمواله وحريمه هانئ بن قبيصة حين عرف غضب كسرى عليه . فلما قُتل النعمان طالب كسرى هانئاً بودائعه فأبى هانئ . ثم إن بنى بكر بن وائل غضبوا لقتل النعمان فأغاروا على سواد العراق فنهبوا منه . وأراد كسرى معاقبتهم ، فالتقت جيوشه بهم فى ذى قار ، ففاز العرب على الفرس فوزاً عظيما . يروى عن النبى عليه السلام أنه قال فى يوم ذى قار : « هذا أوّل يوم انتصفتْ فيه العرب من العجم ونُصِرتْ عليهم بى »[1] . ذلك أن النبى عليه السلام بُعث عام ذى قار .

الغسانيون إلى آخر عهدهم

ذلك كان مصير اللخميين بالعراق . أما الغسانيون بالشام فظلوا يتولى الأمر منهم أمير بعد أمير ، حتى كان جبلة بن الأيهم حاكم عرب الشام عندما فتحه عمر ابن الخطّاب . تولى منهم عمرو الأصغر فى سنة ٥٨٧ م ، فلجأ إليه النابغة الذبيانى هرباً من النعمان بن المنذر صاحب الحِيرة ؛ وتولى بعده أبو كَرِب النعمان السادس ابن الحارث الأصغر ، ففاز من النابغة بخير مدائحه . ثم توالى عدد من الأمراء تدل كثرتهم على اقتسامهم ملك الغساسنة بالشام ، حتى انتهى أمرهم إلى الأيهم الثانى ثم إلى ابنه جبلة بن الأيهم .

ولعل تقسيم السلطان فى الشام بين عدّة أمراء من العرب كان بعض سياسة الروم فى عهود كثيرة ، حتى لا يناوئ العرب الإمبراطورية بوحدتهم . يرجح ذلك أن الغسّانيين لم تك لهم عاصمة بالشام كما كانت الحيرة عاصمة اللخميين بالعراق ؛ بل كانت الجابية عاصمة ، وكانت تَدْمُر عاصمة ، وكانت جَوْلان عاصمة ، وكانت جِلِّق على مقربة من دِمَشْق عاصمة . وهذا يتفق مع السياسة المركزية التى جرت عليها إمبراطورية الروم ، كما تتفق سعة السلطان لصاحب الحيرة مع سياسة اللامركزية التى جرت عليها الإمبراطورية الفارسية .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى . الجزء الأول ص ٢٣٦ طبع بغداد .

ذكرنا فيما سلف أن عرب العراق وعرب الشام استمسكوا باستقلالهم الذاتى وبحياتهم العربية . لذلك ظلت لغة أهل شبه الجزيرة لغتهم ؛ فلم تمحها الفارسيّة فى العراق ؛ ولم تمحها اليونانية أواللاتينية فى الشام . وكان من أثر هذا أن ظلّت صِلات ملوك الحيرة وصلات بنى غسان بشبه الجزيرة وثيقة ، وظل الذين يُشيدون بذكر هؤلاء الملوك وينالون جوائزهم هم شعراء شبه الجزيرة . وكتب الأدب ودواوين الشعراء تروى للنابغة الذبيانى ولأعشى قيس ولعلقمة الفحل ولغيرهم كثيراً مما قيل فى هؤلاء الملوك وكرمهم وما بلغوا من حضارة وترف . وحسّان بن ثابت شاعر النبي كان وثيق الصلة بجبلة بن الأيهم قبل إسلامه .

كان احتفاظ هؤلاء العرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة إلى بادية الشام بخصائصهم وبحياتهم ولغتهم العربية ، من الطلائع التى مهّدت للفتح العربى والإمبراطورية الإسلامية . وسنرى من بعدُ كيف انضم هؤلاء العرب فى كثير من الأحيان لجيوش المسلمين ، وكيف حاربوا فى صفوفهم من كانوا حلفاءهم من الروم والفرس .

الفرس والروم بعد تضعضع سلطان الغرب

هل تأثرت علاقات فارس والروم بالقضاء على ملك الحِيرة ؟ كلا ! بل ظلت الحروب متصلة بينهما بعد ذلك ، كما كانت متصلة بينهما سبعة قرون متوالية من قبل . كانت إمبراطورية الروم لذلك العهد مسرح قلق واضطراب شجّع الفرس على غزو الشام . وكان فوكاس إمبراطور الروم يومئذ فى شغل بثورة هِرَقْل عليه . لذلك أوغل الفرس فى بلاد الشام ، فاستولوا على أنطاكية وانحدروا منها إلى ناحية بيت المقدس يحاصرون المدن ثم يأخذونها عنوة . وتولى هرقل حين كان الفرس فى مسيرتهم إلى القدس فلم يستطع ردّهم أو منعهم من تخريب آثار المسيحية واليهودية بالمدينة المقدّسة . ثم إن اليهود انضموا إلى المجوس وأعانوهم على النصارى . فلما استقر الأمر لكسرى بالشام ، فتح مصر وحل بسلطانه محل الروم فيها . وفى هذه

الانتصارات المتوالية للفرس على الروم نزل قوله تعالى : « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فِى بِضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ » .

وصدق الله العظيم . ففى بضع سنين عاد هِرَقْل فحارب الفرس وأخرجهم من مصر ومن الشام ، وطاردهم إلى المدائن ، واسترد منهم الصليب الأعظم ثم رده إلى بيت المقدس فى حفل حافل . لذا تضعضع سلطان الفرس و إن استنفد ذلك من قوة الروم ما كان بالغ الأثر فى التمهيد للفتح العربى والإمبراطورية الإسلامية .

موقف أبى بكر من فارس والروم

لم يَغِبْ علم ما نزل بالروم ثم بالفرس عن أهل مكة والمدينة . ولم يغب عنهم كذلك أمر بنى عمومتهم من العرب ببادية الشام وما جاورها من العراق و بلاد الشام . وقد هوّن ذلك من أمر الإمبراطوريتين العظيمتين فى نظرهم . وزاد فى تهوين أمرهما قيام النبى العربى وانضواء بلاد العرب كلها تحت لواء الإسلام . لكن ما هان من أمر الإمبراطوريتين لم يبلغ بالعرب حدّ التحرش بهما أو التفكير فى غزوهما ، و إن بلغ بهم حدّ اليقين باستقلال شبه الجزيرة عنهما والذود عن هذا الاستقلال فى وجههما . لذلك ألقت اليمن وألقت بلاد الجنوب كلها بنير فارس ، ثم اتجه جلّ غرض الرسول عليه السلام إلى تأمين التخوم العربية فى الشمال من جنود قيصر . ولم يدر بخواطر المسلمين أن يغيروا على الشام ، أو أن يتخذوا من دعوة النبى هرقل إلى الإسلام سبباً للإيغال فيه . ترى أيقيم أبو بكر على هذه السياسة لا يتعداها ، وله فى رسول الله أسوة حسنة ، أم يغامر بحرب قيصر ، والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء ؟

كان هذا الخاطر يدور بنفس أبى بكر حينما كان النصر يحالف أعلامه فى حروب الردّة . فمذ قضى خالد بن الوليد على مسيلمة باليمامة ، ومذ نشر المهاجر بن أبى أمية وعكرمة بن أبى جهل لواء الإسلام فى أرجاء اليمن وما جاورها ، أيقنت

شبه الجزيرة كلها أن الأمر فيها صائر بإذن الله إلى خليفة رسول الله . لكن أبا بكر كان أحصف من أن يستنيم لهذا النصر فينسى به ما تنطوى عليه صدور العرب من حفيظة قد تضطرم فتضرم الثورة كرةً أخرى . أوليس من الخير أن تتجه أنظار العرب إلى ما وراء الحدود من شبه الجزيرة فتنسى بذلك حفائظها وتنسى أحقادها ! وبادية الشام تنتشر فيها قبائل من العرب ، فجدير بها أن تسمع الدعوة إلى الدين الجديد كما سمعها العرب فى شبه الجزيرة . ولعل هذه القبائل إذ تتصل بأصولها ، وتسمع الحديث عن أجدادها ، تعود بها الذكرى إلى الماضي ، فتسرع لتشارك بنى عمومتها فيما هداهم الله إليه من الحق ، وتشهد معهم أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

تفكير الصديق فيما بعد حروب الردة

كان هذا الخاطر يدور بنفس أبى بكر وهو فى داره المتواضعة بالمدينة ، وكان يدور بنفسه وهو فى مجلسه بالمسجد ، ثم كان يدور بنفسه وهو يجوب الأنحاء الفقيرة آناء الليل فى سرّ من الناس ، يعين المحتاج ، ويأسو كلوم الجريح ، ويسكّن أنّات البائس والمسكين . ولم يستأثر هذا الخاطر بتفكير أبى بكر لأنه كان يحب السلطان لنفسه أو يطمع فى التوسع فيه ، بل لأنه كان يريد أن يطمئنّ المسلمون إلى دينهم وحرّية الدعوة إليه . وإنما تتم للمسلمين الطمأنينة ما قام الحكم فيهم على اساس من العدل المجرّد من الهوى . والحكم على هذا الأساس يقتضى الحاكم ان يسمو به فوق كل اعتبار شخصى ، وأن يكون العدلَ والرحمةَ مجتمعين . وقد كانت نظرية أبى بكر فى تولّى أمور الدولة قائمة على إنكار الذات والتجرد لله تجرداً مطلقاً ، جعله يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج ، ويسمو بعدله على كل هوى ، وينسى فى سبيل ذلك نفسه وأبناءه وأهله ، ثم هو مع ذلك يتتبع أمور الدولة جليلها ودقيقها بكل ما آتاه الله من يقظة وحذر .

وكان حكم أبى بكر فى العام الأوّل من خلافته يكاد ينحصر فى القضاء على

الردّة والقائمين بهـا . وهل كان للمسلمين المقيمين بالمدينة ما يختلفون فيه وأهلوهم جميعاً قد ذهبوا مجنّدين يقمعون الثورة ويقضون على أسباب الفتنة ، وهم أثناء ذلك يتتبعون أخبارهم ويقيمون الصلوات لنصرهم ! ! ولّى أبو بكر عمر بن الخطاب القضاء فى المدينـة ، فأقام عاماً كاملا لم يختلف إليه متقاضيان . وكان أبو عبيـدة ابن الجرّاح قائماً بأمر المـال ، يتلقاه من الزكاة ، وينظر فى توزيعه على حاجات المسـلمين . وكان عثمان بن عفّان يكتب الأخبار للخليفة ، ويكتب زيد بن ثابت ما عداها . وقد كفاه عمّاله على البلاد والقبائل مؤونة إدارتها بما كان لهم من أمانة وحسن بصر بالأمور ، ثم كانوا على اتصال دائم به فى توجيه سياستهم . وقد رأيت الشيء الكثير من ذلك فيما كان بينه وبينهم من مكاتبات أثناء حروب الردّة . وإذ كان أبو بكر فى شغل بهذه الحروب طيلة العام الأول من خلافته ، فقد أقام مقامه عتّاب بن أُسَيْد عامله على مكة فى الحج بالناس ذلك العام .

لم يشـغل أبا بكر عن حروب الردة شاغل إلا ما اتصل بها ممـا قصصنا نبأه حين الحديث عنها . أمّا وقد هان أمر المرتدين ولم يبق لأحـد من أهل الحواضر والبوادي أن يأبه لهم أو يخشى خطرهم ، أفلا يجمل بأبى بكر أن يغامر بحرب قيصر ؟ إنه إن يفعل يصرف أذهان العرب فى شـبه الجزيرة كلها عن ثاراتهم ، ويجعل لهم من الفخار ما ينسيهم ضغنهم على يثرب وأهلها ، ويمهّد الطريق لانتشار كلمة الله فى الإمبراطورية الرومية المترامية الأطراف .

غـزو الروم مغامرة لا يسهل الاقـدام عليها

لـكن غزو الروم مغامرة إن لم يحالف النصر فيها أعـلام المسلمين تعرّضت شـبه الجزيرة لشرّ من الثورة التى أخمدتهـا حروب الردّة : تعرضت للرّوم وحكمهم ، وتعرّضت بذلك لـكارثة تجتث حكم المدينـة ، وقد تفتن المسلمين عن دينهم . ومنـازلة الروم ليست هينة . إنمـا انتصر أبو بكر على المرتدين فى شـبه الجزيرة لأن الإسـلام قضى على الوثنية فيهـا ، ولأن البواعث التى أدّت بطُليحة

ومسيلمة والعنسىّ إلى الثورة وجدت من قبائل هؤلاء المتنبئين من رأى فى رِدّتهم نقضاً لعهد عقدوه مع رسول الله ، حين ذهبت وفودهم إليه بالمدينة تُعلن الإسلام وتنضوى تحت لوائه . أمّا الروم فكانوا نصارى أهل كتاب كالمسلمين ، ثم كانوا إلى ذلك أصحاب الكلمة العليا فى توجيه سياسة العالم لذلك العصر .

صحيح أنه قامت بينهم و بين فارس حروب استطالت على السنين ، كتب النصر فى بُداءتها للفرس ، ثم انتهى الغلب فيها للروم . وقد استنفدت هذه الحروب من قوة الدولتين الكبيرتين ما يحتاج إلى الجهد الضخم والسنين الكثيرة لتعويضه . لكن للفوز فى الحروب بريقاً يكلل هام المنتصر بأكاليل تبهر أنظار الناس ، وتصدّهم عن محاربة من كان النصر حليفه . ولم تكن الأمة العربية قد جرّبت حظها فى مثل هذه الحروب من بعدُ لتُقْدم على مغامرة لها من الخطر مايصدّ عنها ، بل ما يخيف منها .

ولم يرد التفكير فى محاربة الفرس بخاطر أبى بكر . فالحجاز لا يتصل بفارس . والبلاد العربية التي تتاخم الفرس هى البلاد التى فشت فيها الردّة ، و يتعذر لذلك أن يعتمد أبو بكر عليها أو يأمن أهلها فى غزو دولة لا يزال لها ، مع ظفر الروم بها ، جيوش جرارة وموارد كثيرة . أفلا يجمل بالخليفة أن يوجّه همه إلى توطيد الأمن فى مختلف الأرجاء من شبه الجزيرة ، لتنضم كلها فى وحدة تزيدها قوة وتزيد سياستها اتساقا !

المثنى بن حارثة الشيبانى يتقدم فى أرض العراق

وإن أبا بكر ليفكر فى هذا وفى مثله إذ ترامت إليه الأنباء بأن المُثَنّى بن حارثة الشيبانىّ قد سار بقواته شمالاً فى البحرين ، حتى وضع يده على القَطِيف وهَجَر ، وحتى بلغ مصب دجلة والفرات ، وأنه قضى فى مسيرته هذه على الفرس وعمّالهم ممن عاونوا المرتدين بالبحرين . وسأل أبو بكر عن هذا المثنّى من هو ، و إلى أى قبيلة ينتسب ، وعلم أنه من البحرين من بنى بكر بن وائل ، وأنه انضم إلى العلاء بن

الحضرمىّ فى مقاتلة المرتدين على رأس من بقى على الإسلام من أهل هذه النواحى ، وأنه تابع مسيره مساحلا الخليج الفارسي إلى الشمال ، حتى نزل فى قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين فتحدّث إليهم وتعاهد معهم . وعلم أكثر من ذلك أنه رجل جليل المكانة يعتمد عليه . قال عنه قيس بن عاصم المِنْقَرىّ : « هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد . هذا المثنّى بن حارثة الشيبانى ! » .

جعل أبو بكر يفكر فيما سمعه من ذلك وفيما يمكن أن ينشأ عنه . وأدّى ذلك به إلى معاودة التفكير فى دفع المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة كيما ينصرفوا عن ثاراتهم الأولى وثورتهم بسلطان المدينة . ألا يستطيع هذا المثنّى أن يتوغّل فى العراق وأن يفتح للمسلمين أبوابه ما دامت أبواب الشام مستعصية ! فقبائل العرب فى العراق من بنى لخم وتَغْلِب وإياد والنَّمِر وبنى شيبان تهوِى نفوسهم إلى منابتهم فى شبه الجزيرة . ومن العراق انحدرت سَجَاح تُعلن نبوّتها فى بنى تميم ، وتعتمد على أبناء هذه القبائل العربية التى نزحت إلى شواطئ الفرات . لعل البدء بتوجيه سياسة المسلمين إلى هذه الناحية يكون أجدى من كل توجيه آخر ! ولعل هذا المثنّى الشيبانى يكون خير طليعة لتنفيذ هذه السياسة !

اضطراب الأمر فى فارس

وشجّع أبا بكر على العود إلى هذا التفكير ما يعلمه من أمر فارس صاحبة السلطان فى العراق . فقد انتصر هرقل على الفرس قُبيل وفاة النبي وحطم جيوشهم فى نِينوَى ودَسْتَجِرْد ، وسار حتى صار على أبواب المدائن عاصمة ملكهم . وقد بلغ من ضعف سلطانهم أن تخلصت اليمن من نِيرهم وأن انضم بازان إلى رسول الله ، ثم لم يحركوا لاستردادها ساكناً . ومن بعد ذلك تقلّص سلطانهم من البحرين ومن جميع الإمارات الواقعة على الخليج الفارسى وعلى خليج عدَن ، ولم يفكر أحد من ملوكهم فى استرداد شىء من هذا السلطان قلّ أو كثر . وكيف يفكرون والاضطراب ضارب بِجرانه فى بلاطهم ، يسعى كل أمير ليقتل الجالس على العرش

فيأخذ مكانه ؛ حتى لقد ادعى هذا العرش فى أربع سنين تسعة من الأمراء كانوا يقتتلون عليه فيقتل بعضهم بعضاً ، جهرة حيناً وغيلة حيناً . لا عجب إذن أن يصح ما تحدّث الناس به إلى أبى بكر عن المثنّى وفعاله . ثم لا عجب أن ينشَط تفكير أبي بكر فى العراق وفتحه .

مقدم المثنى بن حارثة إلى المدينة

وبينا يتأمل الخليفة الأمر ويطيل التفكير فيه ، إذ أقبل المثنّى إلى المدينة . وتلقّاه أبو بكر وسمع منه وعرف من أنبائه ما زاده اطمئناناً إلى أن البدء بفتح العراق العربي أدنى إلى النجاح ، ولن يلقى من المقاومة ما يلقاه التقدّم فى الشام . وليس العراق على شواطئ النهرين دجلة والفرات وفى الجزيرة الواقعة بينهما بأقل من الشام جمالا ونضرة . وإذا لم يكن أهل الحجاز قد تحدّثوا عنه ما تحدثوا عن الشام لقرب الشام منهم ، ولأن الطريق إليه طريقهم فى رحلة الصيف ، فغداً يتحدّثون عن العراق وتتجه إليه أنظارهم ما اتّجهت إلى الشام . فليعزم الصديق إذن أمره ، وليتوكل على الله .

وكيف له أن يتردد وقد ذكّره المثنّى بأن قبائل العرب التي استقرت بدلتا النهرين الغنية بألوان الزرع والفاكهة وبالطير والحيوان ، مالت إلى الحضر والإقامة وعمل أبناؤها فلاحين فى الأرض ، وأن دهاقين الفرس يستولون على غَلّتها ، ولا ينال أولئك العرب منها إلا القليل الذى يجود الدهاقين عليهم به . أىّ مرعًى أخصب من هذا المرعى لبث الدعوة العربية ، ولتأمين شبه الجزيرة من دسائس الفرس ومن عدوانهم ، فهؤلاء العرب وإن استقروا بأرض العراق يستجيبون لا ريب لكل دعوة عربية . ومعاملة الدهاقين لهم تُعِدّهم للثورة بهم . أمّا وقد أحسنوا السماع لحديث المثنّى فالفرصة من ذهب ، يجب ألا تضيّع ، بل يجب أن تتخذ خطوة لما بعدها .

ولئن حالف النجاح المسلمين فى هذه الخطوة لتكونن البشير بخطوات واسعة .

فليست دلتا النهرين على خصبها وحسن ثمرها أخصب العراق أو أجمله أو أحسنه ثمراً ؛ بل إن دجلة والفرات ليجريان متوازيين قرابة ثلاثمائة ميل قبل أن يتصلا . ولا يقف أمر المناطق التى يتوازيان فيها عند الخِصْب المرع الذى يجعل منها جنة دونها جنات الشام التى بهرت أنظار أهل الحجاز وسحرت قلوبهم ، بل إن بها من ذكريات التاريخ ما يثير الإعجاب فى نفس من يسمع بها من أهل شبه الجزيرة ، بل من أهل الأرض جميعاً . وحسبك أن مدينة « أُور » التى تكشّفت فى عصرنا الحديث عن آثار يقرنها بعض الناس إلى آثار الفراعنة ، تقع فى هذه المِنْطَقة . فإذا أنت سرت شمالاً لقيك بعد قليل من توازى النهرين آثار بابل القديمة ، ولقيك على شواطئ الفرات برج بابل قائماً يحدّث عن عظمة الأشوريين ويروى تاريخ مجدهم . ونحن نتحدث إلى اليوم عن هذا البرج فيثير حديثه فى نفوسنا العجب . ما بالك به من أربعمائة وألف سنة مضت ، وبما كان يثيره في النفوس حين كان العرب يسمعون حديثه !

ليس العراق أقل إغراء من الشام

فإذا أنت تابعت السير على الفرات قابلتك المدائن عاصمة الفرس ومهد الترف والنَّعْمة لذلك العهد فى العالم كله . فقد بلغ الفرس يومئذ من الترف ما تبلغه الأمم حين تنحدر إلى ناحية التدهور والانحلال .

لعل الأسماء التى ذكرنا قد أثارت فى نفسك صورة من العظمة التاريخية لهذه البقعة التى تقع شمالى دلتا النهرين ، وأثارت كذلك فيها ذكر ما كان حول هذه المدن من حدائق وكروم وزروع تمتد إلى الأفق زاهية الخضرة ، يبعث أريج زهرها أروح العطر إلى الهواء الذى تتنفسه .

أمّا وذلك بعض ما فى هذه البقاع من خِصْب جعل الناس يطلقون عليها اسم « جنة الأرض » لكثرة غلالها ووفرة خيراتها وبعض ما فيها من جمال يعدل ما فى الشام أو يزيد عليه ، فقد رأى أبو بكر صدق ما يذكره المثنّى الشيبانىّ ، ورأى

أن من الواجب على المسلمين أن يقوموا بتأمين العرب من أهلها . فإذا استجاب هؤلاء العرب من بعدُ للدعوة الإسلامية ولم يصرفهم الفرس عنها فذاك ، وإلا قاتل المسلمون الفرس ليكون الميدان لحرية الرأى فسيحاً ، وكلمة الحق منتصرة لا محالة بالحجة والموعظة الحسنة .

رأى خالد بن الوليد فى غزو العراق

واستشار أبو بكر أصحابه وعرض عليهم ما جاء به المثنّى من الأنباء ، وقوله له : «أَمِّرْنى على مَنْ قِبَلى من قومى أقاتل مَنْ يلينى من أهل فارس وأكفيك ناحيتى» . وتداول القوم المشورة بينهم، فرأوا أن الأمر فى حاجة إلى رأى خالد بن الوليد يكشف لهم عما يجب إذا قاوم أهل فارس المسلمين . وكان خالد باليمامة مقيماً مع زوجتيه أم تميم و بنت مُجّاعة ، يستجمّ بعد غزوة عَقْرَباء ، و يطمئن إلى العيش بينهما . وقد استدعاه أبو بكر على عجل فحضر . ولم يتردد خالد حين عرف ما جاء المثنّى فيه عن الإشارة إلى ما قد يترتب من النتائج على مقاومة الفرس لجيش ابن حارثة . فقد يدعوهم انتصارهم إلى التفكير فى استرداد نفوذهم فى البحرين وما جاورها . فأمّا إن أعد الخليفة للحرب عُدّتها ، وجعل ما قام به المثنّى من قبلُ طليعة فتح يلقى إليه المسلمون بِفِلَذ أكبادهم فلا ريب عنده فى أن العراق سيفتح أبوابه ، وفى أن العرب المقيمين به عاملين فى الزراعة سيكونون من عوامل النصر لبنى جنسهم .

وأتم أولو الرأى المداولة فيما بينهم ، وأقروا أبا بكر على تأمير المثنّى . عند ذلك أمره أن يتابع ما بدأه بين العرب من عهد ودعوة إلى الحق ، فكان أمره هذا الخطوة الأولى فى فتح العراق . فأما الخطوة الحاسمة فكانت توجيه خالد بن الوليد على القيادة العامة لجيوش الفتح . وفعال خالد فى العراق وانتصاراته على الفرس موضع حديثنا فى الفصل التالى .

* * *

رواية أخرى في فتح العراق

هذه الرواية فى التمهيد لفتح العراق هى الراجحة فى رأينا . على أن طائفة من المؤرخين يذهبون إلى أن المثنّى لم يذهب إلى المدينة ولم يقابل أبا بكر ، وأنه أمعن فى السّير بجيشه فى دلتا الفرات ، فلقيه هُرْمُز ، فكانت بينهما وقعات نمى خبرها إلى أبى بكر . فلما سأل عن المثنّى وعرف من هو وماذا كانت فعاله فى البحرين أثناء حروب الردّة ، أصدر أمره إلى خالد بن الوليد كى يخفّ إليه ، ويعينه على هرمز ، وينصره والعرب الذين آزروه ليريحهم من هذا الطاغية الفارسى . وهذه الرواية مرجوحة عندنا وإن كنا لا نقطع بعدم صحتها . فقد انتصر المثنّى على الفرس ولم يكن فى حاجة إلى مدد . وشجّع انتصاره أبا بكر على التفكير فى غزو العراق ، فأمر خالداً أن يذهب إلى دلتا الفرات يعزز المثنّى ، ثم يسير حتى يفتح الحيرة عاصمة العرب اللخميين ، وأمر عِيَاض بن غَنْم أن يسير إلى دُومة الجندل يُخضع أهلها الذين تمردوا وارتدوا ثم يسير من هناك إلى الحيرة . وأىّ القائدين سبق صاحبه فله القيادة العليا وله الأمر فى تلك البلاد .

وإنما ذكرنا أن الرواية الثانية مرجوحة ، ولم نقل إنها غير صحيحة ، لما فى الروايات التى انتهت إلينا عن ذلك العهد من الاضطراب . ولقد بلغ من اضطرابها حين الحديث عن فتح العراق ومقدماته أن تردد الطبرى وابن الأثير وغيرهما فلم يرجّحوا رواية على أخرى .

ويرى بعض المتأخرين من المؤرخين أن خالداً حين ذهب إلى دلتا الفرات لم تكن أمامه خُطة مرسومة ولا غاية معينة ، وإنما ذهب مدداً للمثنّى ينقذه وينقذ جيشه . فلما انتصر على الفرس وتقدم إلى الشمال وبعث إلى الخليفة بالأخماس وبأنبائه كان هو الذى صوّر الفتح كيف يكون ، وهو الذي اتجه إلى الحيرة فما شمالها . ولقد يُضعف من هذه الرواية أن أوامر أبى بكر إلى قوّاده كانت صريحة دائماً فى ألا ينتقل أحدهم من غزاة إلى ما بعدها إلا بإذنه . ذلك ما رأيناه فى حروب

الردّة ، وذلك ما كان من بعدُ فى فتح العراق والشام . فليس من الممكن مع هذا أن يكون فتح العراق فلتةً ، أو أن يسير خالد بن الوليد مستقلا عن أوامر أبى بكر .

والآن فلنَسِرْ مع المثنّى إلى دلتا النهرين . وعما قريب يلحقنا خالد هناك ليضرب الفرس فى العراق ، ولينتقل منه إلى الشام فيمهّد للقضاء على دولة الروم فى آسيا القضاء الأخير .

obeikandl.com